

الحركة بالدين سبيل الصادقين [١]

العتيق أبو البراء

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله الكرام وصحبه الغر الميامين، وبعد:

فإنّ الدعوة الصحيحة التي تؤتي أُكلها لا بد أن تكون جامعة بين العلم والعمل، وبهذا يتحقق أثرها في حياة الناس، فتُغيّر واقعهم إلى الصلاح المنشود، ويخرجون من ظلام الجهل والضلال إلى نور الهدى ودين الحق.

ولن يتحقق ذلك إذا كانت الدعوة قاصرة على المسائل العلميّة المتقوقعة في الأذهان دون أن تظهر حقيقتها في واقع الناس.

وهذا ما نحن عليه، ونتميّز به عن الدعوات الأخرى، ولله الحمد؛ فإنّ دعوتنا قائمة على العلم الشرعي المبني على أصول سليمة؛ فنطلب هذا العلم ونحرص على تحصيله ونشره بين الناس. ثم يكون معه شيء آخر، وهو السعي إلى تطبيق هذا العلم في واقع حياتنا، والعمل على تمكينه في أرض الله عز وجل.

فنحن لسنا جماعة علميّة لا تخرج عن الكتب والدفاتر، بل نحن جماعة علميّة حركيّة، ونفخر بهذا الأمر؛ فهو يعكس المنهج النبوي في تبليغ الدين. والآن ترى بعض الجماعات المنحرفة –كتلك المنتسبة زورًا إلى السلف– ينبزوننا بهذا اللقب، فيقولون: «هؤلاء حركيّون!».

والعجيب أنّ المنهج الحركي هذا الذي يذمّونه ويُنفّرون عنه هو منهج الرسول ﷺ وصحبه الكرام ﭫ؛ فإنّ دعوة الإسلام دعوة حركية دؤوبة لتغيير واقع الناس إلى ما يرضاه الله، وتبليغ هذا الدين إلى البشرية جمعاء. وهذا لن يتأتّى دون علم وحركة، ولكن القوم لمّا آثروا القعود وأحبّوه، وتكاسلوا عن العمل لدين الله والسعي إلى إقامة شرعه، صاروا ينبزون الموحّدين بما هو منقبة وشرف لهم، وهذا من الخذلان، والله المستعان.

فما المنهج الحركي أو الحركة بالدين؟

هو السعي لإقامة دين الله عز وجل بالوسائل الشرعية، وتطبيق حكم الله في جميع مجالات الحياة بعد التمكين.

ومع أنّ مصطلح «الحركة» لم يرد لفظًا في كتاب الله، إلا أنّ معناه جاء بصيغ أخرى، من ذلك، مفردة «التغيير»، يعني تغيير الواقع من حال إلى حال، كما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

كذلك مفردة «التدافع»، وهو الصراع بين الحق والباطل، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فالتدافع سنّة كونية بين حزب الله وحزب الشيطان، ووجودها ضرورة حتمية ما دام الناس صنفين.

وجاءت معانٍ أخرى للحركة أيضًا في كتاب الله، كـ«التداول»، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، و«الانقلاب»، قال تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الحركة هي اتّباع لسنن الله الكونية

فأيّ شيء تريد تحقيقه في الدنيا يتطلب حركة، منذ بداية خَلق الإنسان إلى أن يلقى الله، فالإنسان يأتي نتيجة حركة: التقاء زوج بزوجة، ثم حصول ما يكون بينهما، ثم بمشيئته سبحانه يُرزَقان ولدًا.

حتى العبادات المفروضة مبنيّة على الحركة، سواء كانت قوليّة أو عمليّة. ففي جميع الأحوال، لا بد من الحركة، والإنسان الساكن لا يُنجز شيئًا.

الحركة إذن مبدأ أساسي في بناء الحضارات، فكل الحضارات التي سجّلت حضورها في التاريخ، سواء كانت إسلامية أو غيرها، وكل الدول والأديان والجماعات ما تمكّنت في الأرض إلا نتيجة حركة أتباعها. ومن سار في مسار الحركة، وصل إلى هدفه. الشيوعيون، مثلًا، عندما اخترعوا العقيدة الشيوعية ثم تحرّكوا بها، أقاموا دولًا مثل الصين وروسيا وغيرها من دول الشرق.

ماذا سيحدث إذا تحرك المسلمون بدينهم؟

ستقع جملة من الأمور التي رغّب الله ورسوله ﷺ فيها:

١) انحسار الباطل:

فأنت اليوم في مجتمع جاهلي، وإذا جلستَ ساكنًا ولم تتحرك بدينك، فإنّ الباطل سينتشر ويتمكّن وتكون له الكلمة العليا، وسينحصر الحق، وسيغرق الناس في الضلال. وهذا ما نعيشه اليوم في الواقع.

أما إذا تحركتَ بدينك، فسيحصل التدافع بين الحق والباطل، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

٢) التمكين في الأرض:

فلو كانت هناك جماعة مسلمة تُدافع هذه الأنظمة الكافرة، وتسعى إلى إقامة شرع الله، لمَا كانت الأرض كلها تحت قبضة الكفار؛ فبالحركة ينحسر الباطل وينكمش، ويجد الحق في الواقع موطئ قدم له.

٣) التوسّع في الأرض:

لمّا تحرك الأوّلون من الصحابة والتابعين وأتباعهم بهذا الدين، ماذا كانت النتيجة؟ بلغَت الفتوحات الإسلامية من الصين شرقًا إلى الأندلس غربًا. هل كان الإسلام سيبلغ ذلك المدى لولا هذه الحركة؟ كلّا والله.

هذه هي سنّة التدافع التي فهمها الرعيل الأول، والتي جعلوها من أعظم العبادات التي يتقرّبون بها إلى المولى ﷻ، وهي تبليغ دين الله إلى الأمم الكافرة والسعي الجاد إلى إقامة دينه في الأرض، فكان كما أخبر الرسول ﷺ أنّ الإسلام بلغ مشارق الأرض ومغاربها.

ففي عهد الدولة الأموية، وصلت جيوش المسلمين إلى جنوب فرنسا غربًا، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من دخول روما. وهذا أقصى اتّساع وصلَت إليه الدولة الإسلامية: من جنوب فرنسا غربًا إلى الصين شرقًا.

ثم في عهد الدولة العباسية، عندما دخلت البدع والأهواء دار الإسلام وصار لها أتباع، تحوّل الجهاد من السلاح والسنان إلى القلم واللسان، وبدأ الانحسار. فصرف المسلمون جهدهم الذي كان في الخارج إلى الداخل لمحاربة أهل الأهواء كالخوارج والزنادقة.

وكثُر الجدال والخصومات، وكان لها شؤم كبير على الدولة الإسلامية، فتوقّف غزو المسلمين ديار الكفار، وانطلق النصارى في الاستيلاء على البلدان الإسلامية شيئًا فشيئًا. وهكذا النصارى، كما ذكر أهل العلم أنهم: «إذا لم يُغْزَوْا غَزَوْا». فإذا لم تُشغلهم في بلدهم وأنفسهم، شغلوك ودخلوا بلدك وأخذوها، كما ثبت ذلك بالوقائع التاريخية.

٤) ظهور جديّة الدين:

إنّ الحركة بالدين تعطي انطباعًا عند الناس أنّ هذا الدين يتّسم بالجدّية والالتزام، ولا يدعو إلى الخمول والدَّعة وإيثار السلامة. وهذا ظاهر في فهم المشركين

لحقيقة دعوة الرسول ﷺ؛ فإنّه أول ما قرَع أسماعهم بقوله: «قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا». ولأنهم كانوا أصحاب عقول، أدركوا أنّ هذا الدين يفرض التزامات عظيمة، فرفضوا قولها.

وهكذا أصحاب بيعة العقبة ﷺ، عندما فهموا حقيقة الدين وهمّوا بمبايعة النبي ﷺ، قال أسعد بن زُرارة ﷺ: «رويدًا يا أهل يثرب، إنّا لم نَضرِب إليه أكباد المَطِيّ إلا ونحن نعلم أنّه رسول الله ﷺ، وإنّ إخراجه اليوم مفارَقة العرب كافة، وقتلُ خِيارِكم، وأن تعَضّكم السيوف، فإمّا أنتم قوم تصبِرون عليها إذا مَسَّتْكُمْ، وعلى قتلِ خِيارِكم، ومفارَقة العرب كافة، فخذوه وأجرُكم على الله، وإمّا أنتم تخافون من أنفُسِكُم خِيفة، فذروه، فهو أعذُر عند الله. قالوا: يا أسعد، أَمِطْ عنّا يدك، فوالله لا نَذَرُ هذه البيعة، ولا نستقيلُها. قال: فقمنا إليه رَجُلٌ رَجُلٌ...» [صحيح ابن حبان: ٢٣٥/٤].

لذلك القاعدة مطّردة: «إذا تحركتَ بالدين على نور من الله، تَحقق التمكين بإذن الله»، فكل جماعة تحرّكَت مُكِّنَ لها، إمّا تمكينًا كليًّا أو جزئيًّا، لكن لا بد أن يحصل شيء من التمكين بمشيئة الله.

الجماعات الخاملة

أمّا الجماعات التي آثرَت الركون والقعود، فلم يُمكَّن لها ولو على شبر من الأرض، فالصوفية مثلًا، ينحصر نشاطهم في الذكر داخل الزوايا أو التكايا أو المساجد، مع ممارسات شركية مثل التمسُّح بالقبور والطواف حولها، دون أي حركة ودعوة مؤثّرة. فهل أسّست الصوفية دولة على مرّ التاريخ؟ إطلاقًا.

تعال إلى فرقة أخرى، المداخلة، وهُم أشدّ الفِرق عداوة للحركة بالدين. من أصول منهجهم أنّ عليهم إصلاح أنفسهم فيُصلح الله واقعهم بلا مجهود منهم! تأسّست هذه الفرقة في أوائل التسعينيات، تحديدًا عام ١٩٩١م، بالتزامن مع غزو أمريكا للعراق. ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم، لم يُمكَّن لهم في أي بقعة من الأرض؛ لأنّ منهجهم يعادي العمل الحركي، فهُم صوفية باعتبار المنهج الحركي، ويرون الحركة بدعة أو خروجًا على ولي الأمر، لذلك لا يفكّرون بهذا البتّة.

وكل جماعة خرجَت من رحم المداخلة تسير على ذات النهج: فالكِنْدي وجماعته خرجوا من تحت عباءة المدخلي وخالفوا الجماعة الأم في بعض المسائل، إلا أنّ تصوّرهم للحركة بقي كما هو، إذ يرون بزعمهم أنّ ذلك ينافي السنّة والأثر!

الحذر من التثبيط والتخذيل

وللأسف، وجدنا التثبيط عن الحركة حتى عند بعض المسلمين، فنرى من بعض المعرّفات تصدّرهم للكلام عن الجماعات الجهمية المعاصرة وبيان ما كانوا عليه من الخلل في الأصول وما ترتّب على ذلك من فساد في الفروع. ولو اقتصر الأمر على هذا لكان طيبًا، ولكن بعضهم تعسّف وغلا حتى صار يزهّد في شعيرة جليلة وركن عظيم من أركان الإسلام الذي عليه يقوم الدين؛ ألا وهو الجهاد في سبيل الله. حتى إنك لتتساءل: هل هؤلاء يحذّرون من الجماعات الجهمية أم يُزهّدون في قتال المشركين وإقامة سلطان الله في الأرض؟!

ولا شك عند أدنى المسلمين علمًا، أنّ دعوة الناس إلى الإسلام الصحيح وإخراجهم من هذه الجاهلية النكراء مقدَّم على أمرهم بالجهاد ومقارعة أعداء الله، كما جاء في الخبر: «أسلِم ثم قاتِل». ولكن لا يعني ذلك أن تُزهّد في هذه العبادة الجليلة على طريقة علماء السلاطين، حيث جعلوا الجهاد محصورًا في جهاد النفس فقط، إرضاءً للطواغيت! فلا يحدّثون أنفسهم بالقتال، فضلًا عن أن يذكّروا غيرهم أو يحرّضوهم على بذل الغالي والنفيس في سبيل إقامة دين الله في الأرض.

والناظر في الآيات الآمرة بالجهاد في سبيل الله، يجد أنّ الله عز وجل قد جعل من صفات المؤمنين الصادقين جهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وفي المقابل، بيّن الله سبحانه في آيات كثيرة أنّ من صفات المنافقين إعراضهم عن الجهاد في سبيل الله، وتخذيلهم عنه، وخوفهم من خوض غماره. من ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٨–١٩].

فليحذر الناصح لنفسه أن يقع في النفاق من حيث لا يشعر؛ بتخذيله عن الجهاد على الطريقة المدخلية التي نراها من بعض من ينتسبون إلى التوحيد والإسلام، ولم نرَ من انزعج من هذه العبادة إلا الطواغيت وأبواقهم وذُبابهم، فكيف يرضى مسلم عاقل أن يخدم مخطّطاتهم التي يسعون إلى تنفيذها منذ أمد، بتزهيد أهل التوحيد في هذا الباب الذي أقضّ مضاجعهم، وقد نجحوا في ذلك نوعًا ما؟!

مجالات العمل الحركي

والفرد من هذه المجتمعات الجاهلية، إذا شرح الله صدره للإسلام وأراد الدخول فيه، لا بد أن يعلم ابتداءً أنّ الإسلام يطلب منه أمورًا، ويخاطبه بواجبات تقع على عاتقه يلزمه القيام بها. فليس دين الله ثقافة عامة أو مجرّد معلومات يعتقدها المسلم، وهذا أقصى ما يقوم به! ولم يدخل هذا التصوّر الفاسد للإسلام في إدراك الناس إلا عندما انتشر دين الإرجاء، الذي يصحّح الدين بدون عمل ولا بذل في سبيل الله.

وقد يسأل سائل: ما المجالات التي يتحرّك فيها المسلم حتى يدرك نصيبه من العمل لدين الله؟ فنقول: إنّ مجالات العمل الحركي متعدّدة، وبعضها أولى من بعض، وهي في الفضل على درجات أيضًا، فليس من باع نفسه لله في ميادين الوغى كمن تصدّق بفضل ماله، وكُلًّا وعَد اللهُ الجزاء والثواب على عمله. ومن ذلك:

١) مجال الدعوة وتبليغ الدين:

وهذه أوّل المراتب في الأولوية، فيحرص المسلم على دعوة أهله وأقاربه وجيرانه ومن يمكنه الوصول إليه والاحتكاك به، فيدعوهم إلى الإسلام أولًا، ثم إلى الحركة بعد ذلك. والمسلم ينبغي أن يكون شجاعًا جريئًا في ذات الله، فلا يتهيّب من الناس، ويحتسب عند الله الجهد والصبر على لَأواء الطريق وأذى الخَلق.

٢) مجال الإنفاق في سبيل الله:

فإنّ المسلم أخو المسلم، يعينه بما فتح الله عليه من متاع الدنيا، ويواسيه في شدّته، ويسعى في قضاء حاجته بما استطاع. وكثير من المسلمين في هذا الزمان في شدّة وحاجة.

واعتزال الجاهلية ودنسها له آثار على المسلم، فلا بد أن يجد من إخوانه من يقدّم له يد العون فيما يحتاجه من أمور دنياه، وهذا سببٌ من أسباب الثبات على الطريق، وإنما ينفرد الذئب بالشاة القاصية.

وقد طرأت نازلة في هذا الزمان، وهي أسر عدد لا بأس به من المسلمات في مخيّمات ملاحدة الأكراد، وهُنّ في ضيق من العيش وقلة ذات اليد، زيادة على ابتلاء الأَسْر والله المستعان. وهؤلاء بحاجة ماسّة إلى من يقدّم لهنّ المساعدات المادية، إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

٣) مجال الإعداد:

وهذا له صور كثيرة يطول المقام بذكرها. وعمومًا يحتاج المسلمون إلى الإعداد العلمي والعددي والبدني والعسكري والاقتصادي. وهذا أمرٌ واجبٌ فرَضه الله على المؤمنين، ووقتُه دائم بدوام الصراع بين الحق والباطل، فإنّ المسلمين إمّا أنهم مجاهدون لأعدائهم أو هُم في مرحلة الإعداد لهذا الجهاد، ولا ثالث لذلك.

٤) مجال القتال ومصادمة الكفار:

وهذا أسمى وأرفع درجات الحركة بالدين، فالجهاد في سبيل الله رغّب الله فيه كثيرًا في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ؛ لأهميته وعظيم شأنه في الإسلام، بل لا يقوم الدين إلا بمقارعة الكفار وإزاحة سلطان الطواغيت الصادّ عن سبيل الله، وفي هذا يقول ابن تيمية: «وأكثر أحاديث النبي ﷺ في الصلاة والجهاد...» [مجموع الفتاوى: ١/١٧١].

وإنّ ممّا ينبغي أن يُعلَم أنّ الإسلام يشكّل تهديدًا حقيقيًّا لكل الأنظمة القائمة في الأرض، تلك التي جعلت من أهواء البشر وزبالات أذهانهم مشرّعًا لها من دون الله. وقد جاء الإسلام ليغيّر هذا الواقع تغييرًا جذريًّا، حتى تكون كلمة الله هي العليا ويدخل الناس في دين الله أفواجًا. والإسلام لا يقبل أنصاف الحلول أو التصالح والتعايش مع الوضع الجاهلي القائم.

فلم تكُن هذه العقلية الانهزامية عند الرعيل الأول من الصحب الكرام، ولن تكون عند من اقتفى أثرهم واستنَّ بسنّتهم إلى يوم الدين.

اللهم هيّئ لهذه الأمّة أمرًا رشدًا يعزّ فيه أهل طاعتك، ويذلّ فيه أهل معصيتك، اللهم أعزّ الإسلام والمسلمين، وأذلّ الشرك والمشركين، اللهم ائذن لشرعك أن يقام في الأرض، واستعملنا لنصرة دينك يا ذا الجلال والإكرام.

والحمد لله رب العالمين.

